

أهمية استخدام الخامات المحلية في إيجاد مدرسة عراقية في الفن المعماري

د. المهندس حيدر كمونة

جامعة بغداد، المعهد العالي
للخطوط الحضري والإقليمي

**إذا كانت النظرية
المعمارية لرواد العمارة
في الغرب قد نمت
وترعرعت في بيئات صناعية
متقدمة يمكن إنتاجها إن
تحقق الفكر (المعماري)
المتطور، فأنت البيئة
العربية المتخلفة صناعياً
لم تكن لتتحمل تحقيق ما
قد يطراً على فكر
المعماري من اتجاهات أو
نظريات.
ولما كانت المنطقة
العربية بأكملها قد ظلت
تابعة لما ينتجه الغرب فأنت
الفكر المعماري المحلي،
وبالتالي العربي، ذلك هو
الأخر تابعا لما ينتجه الغرب
من أفكار ونظريات
ومدارس معمارية حتى
في المفاهيم أو
المسميات التي يصعب
حتى ترجمتها إلحاً
العربية..**

لذلك كان للنظرية المعمارية التي تدعو إلى استعمال المواد المحلية في البناء صدى في المحافل المعمارية، فهي نظرية مرتبطة بالقيومات البيئية وبالواقع المحلي كي يكون لنا نظرية في العمارة العربية المعاصرة..

نتناول في هذه الدراسة مساهمة المواد المحلية المستخدمة في البناء في خلق وإشاعة الأفكار التي تمهد لقيام مدرسة أو حتى نظرية معمارية تستوعب الحاضر بكافة معطياته، حيث تركز على أهم الخامات المحلية المستخدمة في البناء وكذلك دراسة العلاقة بين الخامات المحلية ومجمل الأفكار المعمارية السائدة.

مواد البناء المستخدمة في البيئة المحلية

المحلية (vernacular) كمنهوم هي كل ما يختص بإعطاء المنطقة خصوصيتها وقد تأتي في أحيان أخرى بمعنى موضع أو مكان (local) أي الصفة التي تطلق على السمات والخصائص المميزة لإقليم من البلاد أو لأبناء ذلك الإقليم، فالعمارة المحلية وفق هذا المفهوم ما هي إلا وصف لعمارة خاصة (أي مكان خاص) ولفترة معينة (زمان خاص).

وقد يبرز رأي ثان يصف العمارة بالبناء البلدي أو الوطني (native) والذي يتميز بالتصميم التقليدي (Tradition) ويعتمد على إعادة الترتيب (Rearrangement) أكثر من اعتماده على العمل الخلاق المبدع.

أن لكل امة أو حتى مجموعة من البشر نمطا معيناً بالبناء طورته أجيالها عبر التاريخ فأصبح جزءاً من حياتها وخصيتها على الرغم من عمليات التمازج والتفاعل والنقل والاستعارة التي كثيراً ما تحصل بين الشعوب بعضها البعض.. وهذا النمط الخاص الذي قد يرتقي ليصبح هوية مميزة

لمجتمعات تميزها عن بعضها البعض، يأتي من ثلاث علاقات هي علاقة الإنسان بالله وعلاقته بالشعر وعلاقته بالطبيعة. أن العلاقة الثالثة، أي علاقة الإنسان بالطبيعة، هي التي تهمننا في هذه الدراسة حيث أن المناخ بعوامله المتعددة من اختلاف درجات الحرارة وتأثيرات أشعة الشمس والرياح والأمطار يؤثر كثيراً على البناء وتوجيهه، كما أن طبيعة الأرض وما تحويه من ثروات طبيعية مواد إنشائية تؤثر على نوع الإنشاء، فالعمارة في العراق مثلا اعتمدت قديماً على اللبن الطين والطابوق لتوفره في الطبيعة المحلية بينما اعتمدت العمارة المصرية على الحجر والرومانية على الخرسانة والأسمنت الطبيعي ووظف اليونان القدماء الرخام بصورة واسعة في مبانيهم.

أن عوامل كثيرة ساعدت في عدم تطور مواد البناء في العراق وقرون طويلة متواصلة منها ما هو عام ويتمثل بالصعوبة البالغة التي كانت تجابه عملية نقل التكنولوجيا بسبب قلة الامكانيات المتاحة أمام عملية انتقال الخبرات والمواد، ومنها ما هو خاص يتعلق بالظروف المحلية، حيث ظل العراق والمنطقة عموماً ولفترة طويلة يعاني الانهيار الاقتصادي والثقافي والأمني الذي خلفه سقوط بغداد عام 1958م، 1960هـ، ولهذا لم تشهد تلك الفترة وحتى نهاية القرن التاسع عشر وبيداتيات القرن العشرين، تطوراً يذكر في مجال العمارة.

ولم يكن العراق بأفضل حالاً في ظل السلطة العثمانية التي أقيمت العراق في عزلة شبه تامة عن العالم الخارجي وأبعدهت عما توصلت إليه التكنولوجيا الحديثة من إنجازات مؤثرة في مجتمعات أوروبا وأمريكا خاصة.. بظلت هذه الأوضاع سائدة حتى بدايات القرن العشرين، ومع قيام الحداثة العالمية الأولى (1914م)

فقد ظهرت النظم الهيكلية باستخدام الحديد والكوتريت المسلح والركائز العميقة مما أدى إلى ظهور أو زيادة حجم ومساحات الفتحات الخارجية للأبنية وظهور مادة الزجاج بكميات كبيرة ومساحات واسعة في الواجهة.

كما ظهرت في تلك الفترة مواد جديدة في الأنهاء لتحل محل الطابوق كاللبنخ والأسمنت والجص، والاكساء بالمرمر أو الحجر، وأصبح للمسؤولين الزجاجي والسيراميك والطلاء بالألوان المختلفة دورها البارز في أبنية تلك الفترة.

أن الإفرط في استخدام المواد الجديدة الموكبة للتكنولوجيا العالمية أدى إلى ضعف المهارات الحرفية والأساليب التقليدية في تصفيف الطابوق ومعالجته، وعلى الرغم من أن ظهور الحجر (كمادة انهاء أساسية) في الفترة الحالية بدل الأصباغ والنثر أدى إلى ظهور جيل من الحرفيين المتخصصين بتقطيعه وتشكيله بالشكل الذي يولي المتطلبات الفنية اللازمة لسطح الأفقي كالتصميم والطلاء الخشبية اعتماداً على ما يتوفر في اللين والنورة وجذوع الأشجار (الخشب) في المنطقة الوسطى والجنوبية والحجر الحلان والمرمر في المنطقة الشمالية.

اما البريطانيون الذين حكموا العراق بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، فقد استعملوا الطابوق كمادة رئيسة إنشائية بالنظر لتوفرها ضمن البيئة المحلية، إضافة لكونها مادة تقليدية في بريطانيا ذاتها وفي بعض مستعمراتها كإلهند. وقد تم الاعتماد على مادتي الجص والنورة كمادتين لاصقتين، إضافة إلى استخدام الاسمنت فيما بعد، كما تم استخدام الروف الحديدي (مقاطع) في التسقيف إضافة إلى الجمالونات الحديدية والصفائح المعدنية الموجهة مما أدى إلى زيادة بحور الفضاءات وتقليل مساحة المنشأ.

ولم يقتصر استخدام مادة الاسمنت انشائياً على خصائصها الذاتية فقط، وإنما دخلت ضمن مواد أخرى كالحديد مكونة الخرسانة المسلحة التي استعملت في القوام الإنشائي للأبنية المختلفة وبذلك اتاح مرونة واسعة في التحول نحو مخططات دائرية وثمانية وغيرها.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، منتصف القرن العشرين، اصبح العالم أكثر اتصالاً حيث ساعدت سهولة الاتصال هذه إلى انتقال الأفكار والثقافات من مختلف بلدان العالم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ظهور النفط وزيادة واردات العراق النفطية أدى إلى تحسن كبير في الحالة الاقتصادية كل ذلك فتح الأفاق امام استخدام مواد جديدة بطرق جديدة لتواكب التطور والحركات المعمارية التي بدأت تظهر في تلك الفترة.

البناء وطرق الإنشاء التقليدية وارتباطها بالمكان والبيئة المحلية حيث لا بد من التعامل مع مواد وطرق الإنشاء والتفاعل معها بجوانبها النظرية والتطبيقية في نماذج واقعية حتى يمكن الإحساس الكامل بطبيعة المادة وأساليب الإنشاء، إذ أن مواد البناء المحلية أثاراً كبيراً في تأكيد الخصوصية المعمارية للبيئة المحلية.

وفي عملية التفاعل المتحسس مواد البناء لابد للفكر المعماري من مراجعة أسس التصميم في ضوء الامكانيات التكنولوجية والقدرة الاقتصادية مما قد يستدعي استعمال تكنولوجيا متوافقة تناسب مع طرق الإنشاء ومواد البناء المتوفرة محلياً وفي حدود الامكانيات الاقتصادية للمجتمع.

سبل استغلال مواد البناء في إيجاد مدرسة (معمارية)

ان الإلمام بخصائص الخامات المحلية ودراسة جميع امكانياتها وتأثيراتها تتيح للفكر المعماري استثماراً أقصى لهذه المواد وتوجيه جميع امكانياتها التعبيرية والإنشائية في خدمة المضمون، ويبرز هنا الجانب الاقتصادي كأساس في توجيه التصميم المعماري. فالمضمون يشمل أيضاً اقتصاديات المجتمع التي تتناسب مع برامجه للتنمية الاقتصادية والاجتماعية مما قد يؤثر بالتبعية على البحث عن أنسب طرق ومواد بناء محلية للتشييد.

ولابد ان يدخل في هذه المعادلة عامل الطاقة المتجددة والإبداع، وبذا يصبح المضمون المعماري غير منفصل عن المضمون الاقتصادي، فالإقلال من المخالفة في التصميم المعماري مع البساطة والعفوية في التعبير والإبداع فيما هو محلي من خامات محلية وامكانيات تناسب جميعها مع مبدأ الوسطية وهي منهج يطبق على الإنسان فلا أقل من أن يطبق على العمران الذي يحتويه.

إذا استطاع الفكر المعماري ان يرتقي بهذا السلم فسيتمكن من تفجير طاقات الخامات المحلية والسير بها نحو هوية خاصة بالمكان والمجتمع تنبع من التراث دون الاستغراق فيه وتعبير عن الحاضر بكل أفاقه المستقبلية دون الانقطاع به عن جذوره التاريخية التراثية، والتي هي ليست رموزاً شكلية جامدة تستقر في وجدان المجتمع فحسب بل هي أساس يقيم معمارية وفتية وجمالية وبيئية استقرت في وجدان المجتمع على مر الزمن ومع اختلاف المكان.

والبحث عن هذه القيم لا يتم باستخلاص الجوانب التشكيلية للمفردات المعمارية واستنباط أنماط جديدة منها في العمارة المعاصرة كي يتم الربط بين القديم والحديث بل باستخلاص القيم التصميمية التي أبدعتها اليد الإنسان في حرفية البناء

بالبقيمة التراثية لاستعمال مادة الطابوق مثلاً أو الحجر أو الخشب وغيرها.. وتكمن في التعبير الصادق (التلقائي والعفوي) عن مادة البناء وطريقة الإنشاء.

أما في العناصر الإنشائية سواء في طريقة ربط الحوائط أو تعبئة الأبواب والفتحات أو في نظام الأعمدة أو طرق التغطية، فالقيمة التراثية تكمن في التعبير الصريح عن مواد البناء وطرق الإنشاء كما ان القيمة التراثية في أسلوب البناء والتشييد تكمن في استثمار الطاقات والخامات المحلية مع محاولة الاكتفاء الذاتي في اقتصاديات المشروع أو البناء.

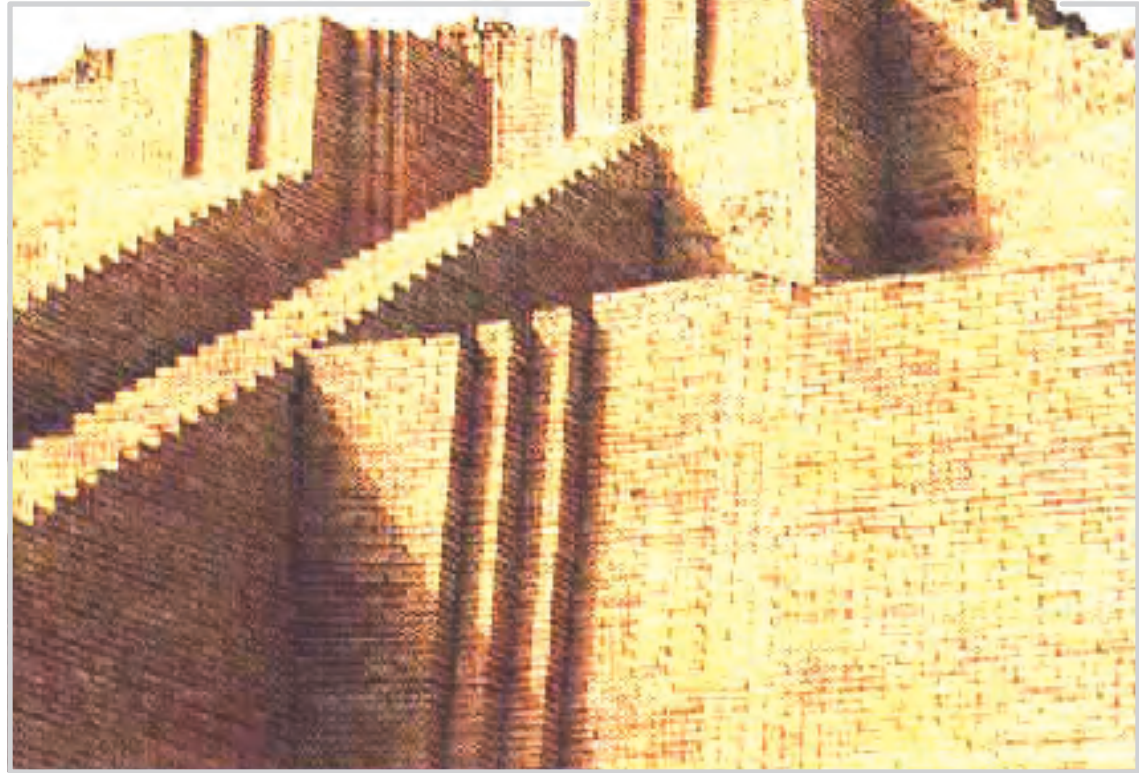
أما الناحية المعمارية فتتجلى هذه القيمة في اظهار قدرة الإبداع الحر في تشكل المادة المحلية بما يتناسب مع المتطلبات المعيشية للمكان أو الزمان دون طمس لخصائصها الطبيعية.

ان الشكل في العمارة يضرضه المضمون في البداية ثم تصدده مواد البناء وطرق الإنشاء التقليدية المحلية وتكمله القيم الفنية المتوارثة في أي مكان وفي أي زمان، ومادامت مواد البناء هي التي تعطي الأشكال المعمارية تعبيريتها وصدقها فأنتها على علاقة وثيقة بالبيئة، وتؤثر كثيراً في تحديد معالم هذه البيئة وبالتالي يمكن استغلالها علمياً. وفق منهج علمي مدرسو. في إنتاج مدارس معمارية خاصة بالبيئة المحلية.

خلاصات

ان الحضارة هي المفهوم العام والكلّي الذي يتضمن كلاً من التكنولوجيا والعلم والثقافة، لذلك يمكن أن ينقل العلم، ويمكن أن تنقل التكنولوجيا، ولكن لا يمكن أن تنقل حضارة أو ثقافة، فالتفاعل بين الأمم والحضارات جميعاً على ظهر الأرض تفاعل مشروع، مع التفريق بين ما يصح أن يؤخذ وما يصح أن يدع، مما عند الغربيين، كي يتسنى لنا خلق حضارة معاصرة متفاعلة وفاعلة لذا لا يجوز النقل الأعمى من الحضارات الأخرى ولكن يمكن الاستفادة منها لما في ذلك من أشياء وتسمية. فاستكشاف الثوابت المادية واللامادية التي بموجبها تعمل على رسم الهوية المعمارية، واستقاء المتغيرات التي يفرضها البعد (الزماني، المكاني) من شأنه أن يؤدي إلى تحديد بعض المؤشرات التي تمكنها من نقل تكنولوجيا متطورة مع المحافظة على خصوصية عمارتنا.

ان الوصول إلى العمارة المحلية الحديثة يتم عبر تطوير كل من نقل التكنولوجيا الحديثة ومحاولة الاستفادة من التكنولوجيا المستوردة، التي يتم انتقاؤها وتكييفها لخدمة العمارة المحلية، إضافة إلى تطوير التكنولوجيا المحلية الموجودة أو ما يسمى بالتكنولوجيا الوسيطة.



السوري سديف المهدي :

أنافنان ذو مزاج أزرق

وارد بدر السالم / أبو ظبي

بترجمة الهاجس الفني وتشذيبه مما قد يعلق به من استطرادات لا مبرر لها.. اللوحة الصغيرة تكتيف لرؤية الفنان الى حد يجعلها منضغطة على فكرتها ومتكاملة من وجهة النظر الفنية.

❖ نلاحظ سمة التكرار على لوحاتك.. هل هذا تعبير عن هاجس فني؟

. أنا أطرح الفكرة بأكثر من صيغة تشكيلية، هناك لوحات أقرب الى الشكل الواقعي، والأخرى أولفها تأليفاً، فالموضوع يعطيني إمكانية أن أكرر شيمة اللوحة بطريقة مختلفة. أي أنني أرسد نفس الحالة بزمنين مختلفين، لذلك تجد نفس الشخصيات تتكرر، بل نفس اللقطة تتكرر؛ لكن زمنها يختلف وحركتها تختلف، والظل والضوء فيها يختلج.. التكرار لا يضعف من فنية اللوحة ولا ينتقص من تجربة الفنان..

❖ يلاحظ أن أرضيات الكثير من لوحاتك شطرنجية.. ما هو مستوى الهدف الفني الذي تريد أن تصل إليه؟

. الشكل الشطرنجي قريب من فن الخداع البصري، فاللونان الأسود والأبيض فيه يتماوجان بصرياً؛ وحاولت الاستفادة من هذا الفن قدر الإمكان لتوظيفه في مشروع لוחتي؛ لأن هذا الشكل قريب من التلقي لشيوعه بين الناس، لذلك فهو يختصر لي التأويل الناجم عن كثرة استخدامه، كما أنه يخدمني في تكوين اللوحة بإظهار البعد الثالث فيها.

❖ يلاحظ أيضاً اعتمادك على اللون الأزرق في إنشاء لوحاتك؟

. أميل إلى اللون الأزرق حتى في ارتداء ملابسني، وهذا مزاج شخصي، ودلالته المباشرة



في إنه يفسر لي الحزن؛ اللون الأزرق لصيق بالحزن، كما إنه يعبر عن الحكمة بتفسير الأقدمين، وإذا ما امتزج اللون الأزرق بالحكمة، فالإنسان حزن نبيل.. وأعتقد أن اللون الأزرق لون هادئ، شفاف، قادر على إثارة الآخرين، وقادر على أن يلتحم بأحزانهم..

❖ كيف تستحضر فكرة اللوحة؟

. أنا لا أستحضرها، أنا مشغول بالعمل الفني كل الوقت، دائماً رأسي منشغل بتكوين فني لا أعرف متى يأتي، وحتى إذا أنجزت لوحة ففكري مهووس بلوحة قادمة، فالمؤثرات اليومية هي التي تصنع المزاج الفني،



والأحداث الكبيرة التي نعيشها الآن تؤثر كثيراً في تهيئتي النفسية لإنجازات فنية قادمة..

❖ وما تو جهك الفني في هذا المعرض؟

. أرمم بأسلوب أقرب إلى التعبيرية منه إلى الواقعية.. أنجزت معارض بالرسم الواقعي، لكنني أحوض تجربة جديدة في هذا المعرض..

❖ تستطيع أن تشرح موضوع الانتظار في هذا المعرض.. كيف تعاملت مع هذه الشيمة؟

. تغلب على معرضي موضوع الانتظار، كان بودي أن يكون المعرض بكامله مشروعاً للانتظار.. لاحظ الانتظار الطويل والغماض

لشخصياتي، ولاحظ لوحاتي التي يعمها الانتظار..

❖ ماذا تنتظر لوحاتك؟

. الأنثى تنتظر الآخر والفنان ينتظر الفكرة والطفل ينتظر أن يكبر والطالب ينتظر النجاح والجدّة تنتظر الأحفاد في الأعياد.. الانتظار مشكلة قديمة..

❖ هل هناك فكرة فلسفية أعمق من هذه؟

. معاناة الانتظار فكرة عميقة، كل فرد ينتظر خلاصه، معاناة الإنسان على مر العصور فكرة فلسفية. الانتظار فكرة فلسفية.

❖ يسعى نقاد الفن التشكيلي الى تجييل الفنانين الى حقب زمنية، ما هو تصنيفك الجيلي بين الفنانين السوريين؟

. لا أعرف هذه التقييمات والمسميات ولا أنشغل بها كثيراً، فهي لا تشكل لي همّاً. نقاد الفن التشكيلي هم الذين يبحثون عن الحقب، وكفنان طموح علي أن أرسم فقط ولا أنشغل بشيء آخر.

❖ ما هو الموقف النقدي من رسوماتك؟

. عندما كنت مغرباً بالرسم الواقعي كان النقاد معجبين بتجريبي، وهذا أول معرض أقيمه للرسم الحديث، ولم أعرف انطباعات الآخرين بعد.

❖ ما هي المؤثرات المباشرة في تجربتك؟

. كل جهد فني أحترمته وأراه وأدرسه بتمعن، وأقدر كثيراً تجارب الرواد في سوريا ومهم الفنانون سعيد حسين وتوفيق طارق وإقبال قارصلي ونعيم إسماعيل وفاتح المدرس ولؤي كيبالي ونذير نبعة وغيرهم، أما المؤثرات العالمية فأنا أعشق جداً أعمال الفنان الكبير بيكاسو..